الفصل الخامس

السياسات التحريرية للإعلام الروسي: دراسات حالة

أولا: السياسة الإعلامية الروسية في الحرب الشيشانية الأولى والثانية

كانت الحملة العسكرية الأولى على الشيشان من ديسمبر ١٩٩٤ إلى أغسطس ١٩٩٦ أول اختبار حقيقي لحرية الصحافة في روسيا منذ انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، وظلت طويلا في التصورات الأكاديمية عن الإعلام الروسي حتى نهاية التسعينات.

وعلى الرغم من أن بعض الصحفيين أدان قصف البرلمان الروسي عام ١٩٩٣ وساند يلتسين، فقد دفعت حرب الشيشان الصحفيين للقدح في حق يلتسين بشكل كبير لأول مرة، وكانت محطات التليفزيون التي تدار من موسكو هي المصدر الأساسي للمعلومات عن القتال.

وفضحت شبكة قنوات NTV الأكاذيب الرسمية عن كيفية اندلاع تلك الحرب، وتبعتها نشرات الأخبار في شبكة التليفزيون الحكومية RTR التي كانت قناتها الثانية Channel 2 تصل لكل جزء من روسيا، ورفعت كل الصحف الخاصة تقريبا أصواتها ضد الحملة العسكرية.

وكان إبراز وجهة النظر المضادة للحرب مصدر فخر لمعظم الصحفيين، ورغم أن التقارير الصحفية لم توقف إراقة الدماء في البداية، إلا أن المعارضة التي تشكلت سريعا ضد الحملة أجبرت الرئيس يلتسين على قبول اتفاقية وقف إطلاق النار بينما هو يستعد لدخول حملة الانتخابات الرئاسية الثانية في نهاية ١٩٩٦.

وآمن كل من مؤيدي الحرب ومعارضيها أن التغطية الإعلامية دعّمت من وجهة نظر الأغلبية بضرورة وقف القتال.

وعلى الرغم من أن يلتسين لم يتراجع عادة عن السياسات التي يعارضها الرأي العام، ولكن تراجعه الاستثنائي في الشأن الشيشاني أوضح أن الصحفيين ساعدوا على وجود درجة ما من الشفافية، ومن ثم تحمل روسيا

obeikan.com

لمسئوليتها عن الأحداث في الشيشان، وبنفس الأهمية، فإن تهديدات المسئولين الروس الكبار لوسائل الإعلام فشلت في تغيير مضامينها ونبرتها المعارضة للحملة مؤكدة أن الاستقلالية التحريرية التي تمتع بها الإعلام الروسي كانت حقيقة راسخة عندما عبّر عن مقاومته للضغوط التي مورست عليه من أعلى.

لكل هذه الأسباب، يرى المعلقون أن تغطية حرب الشيشان الأولى كانت لحظة الحقيقة للصحافة الروسية أو أكثر لحظاتها روعة وعلامة على أن روسيا - على الرغم من أن ذلك كان بشكل غير مكتمل وغير مثالي - أحدثت قطيعة مع فترة التحكم الإعلامي التي كانت سائدة في الاتحاد السوفيتي السابق.

وإذا كانت حملة الشيشان الأولى أثبتت أن السلطات الروسية لم تستطع التلاعب بوسائل الإعلام، فإن الحملة الثانية على الشيشان التي بدأت عام ١٩٩٩ أثبتت العكس تماماً.

في الحملة الثانية، أصبحت أغلب وسائل الإعلام الحكومية والخاصة معتمدة على مركز المعلومات الرسمية الذي وصفه أحد المراسلين بعبارة (قسم الدعاية)، وفيما رأى ياسين زاسورسكي عميد كلية الصحافة بجامعة موسكو الحكومية السابق بأن تغطية الحرب الأولى كانت نجاحاً محققاً للصحافة الروسية الديمقراطية، فإنه في نهاية ١٩٩٩ لم يجد الكثير ليقدره في التغطية الإعلامية التي انقلبت لتصبح واحدية الاتجاه ومتحيزة لوجهة النظر الرسمية، عندما صعّدت الدولة أثناء الحملة الثانية من سياسات حجب الأخبار وإخفائها الذي يفيد الكرملين فقط.

في الحملة الأولى، تعاطف عدد كبير من الصحفيين مع القضية الشيشانية وكانت معظم الصحف القومية التي تعمل من موسكو تتمتع بإدارة ذاتية واستقلالية تحريرية وآمن صحفيوها بأن الصحافة تمثل (سلطة رابعة) تراقب الأداء الحكومي.

وبنت أغلب وسائل الإعلام الخاصة- لا سيما تليفزيون NTN والصحيفة اليومية (سيفودنيا) وراديو (إيكو موسكوفي) وكلها كانت مملوكة لمجموعة (Most) الذي كان يديرها رجل الأعمال فلاديمير جوسينسكي- سمعتها الطيبة على المهنية والتوازن في تغطية الحرب.

وعلى الرغم من أن يلتسين أزعجته تغطية الحرب الشيشانية الأولى فإنه لم يشجع كثيرا الهجوم على وسائل الإعلام وتعريضها للضغوط نتيجة عدم تعاطفها مع سياساته.

وفي واحدة من سياساته المتوازنة، فقد أكد على أهمية حرية الصحافة في الوقت الذي لم يعاقب فيه العسكريين الذين داسوا على حقوق الصحفيين.

ولكن في الحملة الشيشانية الثانية ١٩٩٩- ٢٠٠٠، نجح اقتراب الكرملين في إدارة التغطية الإعلامية، ونجحت تكتيكاته التي فشلت في الحرب الشيشانية الأولى وهي: وضع قيود شديدة على دخول الصحفيين لمسرح العمليات أو ما تسمى دائرة الحرب War Zone، إتاحة معلومات يومية محدثة عن القتال ينفرد بها مكتب المعلومات الرسمية، اللعب على الأوتار العاطفية الوطنية أو الحس الوطني للصحفيين، تكذيب وجهات النظر المعارضة للحرب، والتطبيق الانتقائي للقانون الجنائي على الصحفيين الذي حادوا عن الموضوعات المقبولة رسميا.

ولكن ما الذي جعل هذه السياسات ناجحة في الحرب الثانية؟ رغم أن تغير اتجاهات الصحفيين الروسي نحو الانفصاليين الشيشان يعد شيئا مهما إلا أنه ليس المسئول الأول عن التغطية الإعلامية المطيعة للكرملين، فقد حاول بعض الصحفيين تقليد طريقة التغطية الخبرية للحرب الأولى ولكن المسئولين الروس كانوا قد تعلموا من أخطائهم في منتصف التسعينات ومن الطرق التي استخدمتها الحكومات الغربية خلال حملة قصف الناتو ليوغسلافيا في ١٩٩٩.

في موسكو، قدم الخبراء الاستراتيجيين اللامعين المعلومات بشكل يومي وفي الوقت المناسب، وفي الشيشان والجمهوريات المجاورة، نجح ضباط الجيش والأمن بشكل كبير في منع الصحفيين المناوئين من الدخول لمناطق القتال.

أما العامل الأكبر فكان في السعي الناجح للسلطات في التأثير على التغطية بشكل غير مباشر عبر القروض البنكية والمجموعات الاقتصادية التي سادت سوق وسائل الإعلام في موسكو في الفترة بين الحربين الشيشانيتين.

عمد فلاديمير بوتين إلى مجموعة (جازبروم) - التي تملك الدولة أغلب أسهمها - لإخضاع تغطية قناة NTV للحرب الشيشانية الثانية لصالح الدولة وسياستها، وهذا الطريق لم يكن متاحاً لـ (يلتسين) في الحرب الأولى لأن مجموعة (جازبروم) التي تحتكر الغاز الطبيعي في روسيا لم تكن تستثمر في قناة NTV بعد.

في الحرب الثانية لم يمتلك بوتين فقط كروتاً للعب أكثر من يلتسين، ولكنه كان أيضا أكثر جرأة في استعمال الوسائل السلطوية لجعل الصحفيين مساندين لجهود الحرب التي تشنها الدولة الروسية، ففي ظل موافقته قامت وزارة الإعلام (التي لم تكن متواجدة بالحرب الأولى) بالضغط على الصحفيين لردعهم عن مقابلة القادة الشيشان.

وبينما لم يوافق يلتسين على الاستجواب الجنائي لمراسل قناة NTV في الحرب الأولى عام ١٩٩٥، فإن بوتين دافع عن الاعتقال غير القانوني لمراسلي راديو ليبرتي في بداية ٢٠٠٠ ناصحا ومهددا الصحفيين بمراعاة قوانين الدولة إذا أرادوا أن تراعي الدولة تطبيق القوانين معهم، وتعاضد كلا من الاستخدام الفعال للتكتيكات القديمة والأدوات الجديدة التي أمتلكها مسئولو الدولة، مع الاستخدام الكفء للإرادة السياسية للدولة في حدودها القصوى في احتكار الكرملين لأجندة الأخبار خلال الحرب الثانية على الشيشان.

الحرب المعلوماتية:

يرى أغلب منظري تغطيات الحروب إعلامياً أن وسائل الإعلام تميل للاحتشاد خلف قادتها السياسيين في زمن الحرب شأنها في ذلك شأن أغلب المواطنين.

وللوهلة الأولى، يبدو سلوك وسائل الإعلام الروسية في الحرب الشيشانية الأولى كالاستثناء الذي يؤكد القاعدة، فقد ظهرت قناة NTV كالشوكة في جنب السلطات وبثت مشاهد لقتل المدنيين في المدن الشيشانية، فيما كان يؤكد المسئولون العسكريون أن كل شيء هادئ أو أن هذه القنابل قصفت أهدافاً عسكرية فقط.

بينما كانت تغطية الإعلام الروسي في الحرب الثانية طبيعية في مساندتها للدولة وقبول القيود في زمن الحرب، وساعد على ذلك أن الصحفيين الروس خبروا فظائع الشيشان في معاملة الرهائن الروس، وكذلك استاءوا من نكران الجميل الذي أظهره الشيشان تجاه الصحفيين الذين دافعوا عن حقوقهم في الحرب الأولى.

فضلاً عن ذلك، فإن النجاح الذي أصاب جهود الدولة في إدارة التغطية الإعلامية في الحملة الثانية لصالحها كشف عن العلاقة المتغيرة بين الدولة ووسائل الإعلام في النصف الثاني من التسعينات؛ إذاً اختلف السياق وكانت هناك قوة أكبر من قبل الدولة وتعاطفاً أقل من قبل الصحفيين مع الشيشان.

وعلى الرغم من وجود قلة عدد وسائل الإعلام الروسية المناهضة للحرب في الشيشان ١٩٩٩ مقارنة بوسائل الإعلام التي ساندت وجهة النظر الرسمية، إلا إنها أيضاً لم تستطيع الدخول لساحات القتال لجمع لمعلومات مخالفة لمعلومات الدولة والتحقق من حالة المدنيين.

هذه الضغوط لم تمنع صحيفة مثل (نوفايا جازيتا) من أن تتصدر الأصوات التي قدمت تغطية مناوئة للحرب، ولكن صحفييها لم يجدوا دلائل على وجهات النظر الأخرى لأنهم لم يتواجدوا في ساحات القتال ولم يقابلوا الضحايا من المدنيين، وكذا لم يجدوا دلائل لمساندة تسوية سياسية للنزاع.

وبرغم لقاء بعض وسائل الإعلام الروسية للزعيم الشيشاني أصلان مسخادوف منذ ١٩٩٧، إلا أن وسائل الإعلام الروسية كانت مترددة في تقديم وجهات نظره في حرب الشيشان الثانية لأن الأمر كان يعرضها لتلقي تحذيراً رسمياً من قبل الدولة تطبيقا لقانون الإرهاب، وكذلك عاقب القادة العسكريين المدنيين الذين قابلوا الصحفيين، وأثنوا على هؤلاء الذين رفضوا مقابلتهم.

وكذلك فإن التحكم في أسهم ملكية وسائل الإعلام الخاصة أزاح الاستقلالية التحريرية جانبا، وحاولت مجموعة (Most) الإعلامية مقاومة ضغوط الدولة للموافقة على الحرب ولكن تحركت مجموعة (جازبروم) لتطالب المجموعة الإعلامية بالقروض التي منحتها إياها مثبتة أن معاندة سياسات الكرملين يمكن أن تكون مكلفة.

في الحرب الثانية لم تتحكم الدولة بكامل التغطية الإعلامية ولكن تحركها من صفر٪ في الحرب الأول إلى ٩٠٪ في الحرب الثانية دلل على نجاح استراتيجيات التحكم غير المباشر الذي آمن بها بوتين وكانت أولى تجلياتها في الحرب الشيشانية الثانية.

نعم قابلت وسائل الإعلام الروسية بعض القادة الشيشان ونقلت وجهة نظرهم دون أن يتطرف صوتها في معارضة الحملة العسكرية، بل وأدركت أنها لن تتحقق نصراً سريعاً على الخبراء الاستراتيجيين الذين يملئون قنوات التليفزيون الأكثر متابعة من قبل الجمهور الروسي والمؤيدين لكل خطوات الدولة في الحرب على الشيشان.

تغطية صراعات شمال القوقاز:

وفي دراسة صدرت في لندن بتمويل من المكتب البريطاني للكومنولث وأجراها الباحثان توبى ماندل مدير برنامج القانون بالمطبوعة المسماة (المادة ١٩)، ونتاليا ميرمانوفا مستشار الإعلام وحل الصراعات، أبرزت النتائج أن المعلومات عن صراعات شمال القوقاز سواء في روسيا أو في المنطقة بأسرها كانت محدودة وذات وجهة نظر واحدة مسيّسة، فالأخبار عن شمال القوقاز

غالباً ما ترتبط بمصطلحات مثل (الهجمات الإرهابية) و(العمليات المكافحة للإرهاب).

وتحديدا فإن السلطات الروسية حجبت كل الأصوات المخالفة في الشيشان وجمهوريات الاتحاد الروسي الإسلامية مثل داغستان وتتارستان، مؤكدة بذلك على الرواية الرسمية للأحداث التي يمكن للجماهير الروس الوصول إليها، بينما منعت البيئة المقيدة في الشيشان واعتبارات الأمن ظهور أي أصوات بديلة، وفي سياق معقد اقتصادياً واجتماعيا يزيده تعقيدا أحداث العنف والصراع العرقي والاعتداء على الحقوق والحريات، فقد ساهم كل ذلك في اتجاهات معادية منتشرة ضد الشيشان مرتبطة بمشاعر ضد الأعراق القوقازية وضد الأجانب عموماً.

وقد ساعد ذلك أيضاً على إضفاء الشرعية على الجهود العسكرية الروسية في المنطقة مانعة تغطية القضايا الخلافية مثل انتهاكات حقوق الإنسان التي يرتكبها الجيش الروسي في شمال القوقاز والنتيجة أن الجمهور الروسي عامة لا يستطيع المشاركة والنقاش حول مسئولية السلطات عن الأحداث.

ومنذ سنوات العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، عادت التغطية الإعلامية للشيشان إلى الهدوء، وتزداد فقط تغطية أحداث الجمهوريات المجاورة لروسيا في أوقات تصاعد العنف، وساعد عليه غياب قيود السفر للصحفيين في تغطية شئون الجمهوريات الأخرى القوقازية غير الشيشان.

وهذا لا يمكن فهمه إلا في سياق قمع وسائل الإعلام في روسيا، فالميديا الروسية بفعل ضغوط السلطات صنعت إجماعاً حول السياسات الروسية، ففي روسيا حيث مهنة الصحافة مهنة خطرة يتعرض المشتغلون بها للقتل والتحرش والتقاضي والاعتقال، لم يبرز إلا الصوت الرسمي فضلاً عن ثقافة الامتثال والخضوع السائدة في الوسط الإعلامي الروسي التي تم إيضاحها في الفصول السابقة.

بالإضافة لذلك، فقد تحولت البرامج السياسية إلى برامج دعائية خاصة في قنوات التليفزيون الاتحادية، وشاعت برامج الترفية وبرامج تليفزيون الواقع التي استحوذت على اهتمام الجماهير، هذا في الوقت الذي أبدت فيه وسائل الإعلام المكتوبة (الصحافة) مقاومة من نوع ما وتحليلا متعدد الجوانب لا يمكن أن تراه في وسائل الإعلام الأخرى ولكن يبقى تأثيرها محدودًا للغاية.

فضلاً عن ذلك، فإن الضغوط التي تعرض لها صحفيو شمال القوقاز منعت التغطية المحايدة المستقلة، وتتمثل الضغوط في التلقين الحماسي للمحررين، رفع قضايا السب والقذف وتشويه السمعة على الصحفيين، سحب الرخص للجرائد وقنوات التليفزيون المحلية، التهديد المباشر بالإيذاء أو القتل، مما أدى لانتشار الرقابة الذاتية وغياب التغطية الاستقصائية.

فوق ذلك، فإن الأحوال المتداعية للاقتصاد في شمال القوقاز ونقص التمويل جعل من أي وسيلة قوقازية وسيلة ضعيفة معتمدة على مصادر التمويل الرسمية، وحتى عوائد الإعلانات كمصدر للدخل غابت في ظل تداعي الاقتصاد وضغوط السلطات، وانهيار البنية الأساسية نتيجة الصراع وعدم الاستقرار، ويأتي المستوى المنخفض للأداء المهني الصحفي المحلي عاملا أخر في ظل غياب التأهيل والتدريب الجيدين وغياب الوعي بالقانون وحقوق الإنسان.

وقد أسفر تحليل المضمون الذي أجراه هذا المركز البحثي عن غياب التعددية، فالأطر السائد عن شمال القوقاز هي أطر التطرف والجريمة في وسائل الإعلام الموالية معظمها للدولة وسياستها، على حين ظهرت الأصوات المعارضة الخافتة في صحف مثل: نوفايا جازيتا، وكومرسانت منتقدة سياسات الدولة حيال شمال القوقاز مقدمة لأحداث انتهاك حقوق الإنسان في تلك الجهات من قبل مؤسسات تطبيق القانون العسكرية: الشرطة والجيش والمخابرات.

وتوصلت الدراسة لنتيجة أخرى مفادها غياب المصادر المختلفة، المصادر المتاحة فقط هي المصادر الرسمية، وحدها بعض الصحف المعارضة المشار لها سابقاً توصلت لمصادر مختلفة أغلبها مجهل لا يعلن عن نفسه حتى لا يتعرض للإيذاء، تصدرت المصادر الرسمية من موسكو المشهد الإعلامي على

حين غابت المصادر التي لا تجرؤ على الكلام، وقد ساعدت ترسانة القوانين المكافحة للتطرف والإرهاب وتعديلاتها على غياب أي صوت بديل خاصة هؤلاء المغضوب عليهم من منظمات حقوقية غير حكومية والتي أجبرت على الإعلان عن نفسها تحت اسم (عميل/وكيل خارجي).

فقط تبقي بعض مواقع الانترنت وبعض الصحف مقدمة الشذرات البديلة ولكن وزنها في التأثير في الجماهير العريضة جد قليل، إذ أن عددا قليلا جدا من الروس من لديه معلومات شاملة عن الصراع، ورأيهم غير مطلوب على الإطلاق بما يمنع آفاق إيجاد حلول الصراع.

ولم تملك الدراسة إلا التوصية بأن تستجيب السلطات الروسية لقواعد القانون الدولي ومسئولياته، وتحجم من حجبها للمعلومات عن الصراع إذ أن هناك علاقة بين كبت التعبير والعنف المحتمل، وانتقدت الدراسة التطبيق الانتقائي لقوانين مكافحة التطرف لحجب المعلومات وطالبت بإلغائها فضلا عن توصيتها بتدريب صحفيي شمال القوقاز على التغطية الاستقصائية المهنية التي يمكن أن تصنع فارقًا.

وصدق من قال أن هذه الدراسات لا تجد أذنا صاغية إلا في الغرب، في حين تضحك منها السلطات الروسية التي تنزع بدورها المصداقية عن وسائل الإعلام الغربية وتتهمها بالتحيز والنفاق.

ثانيا: تغطية الحرب الأهلية في سوريا

مؤسسة سوريا للبحث والتقييم هو مركز مستقل مقره في غازي عينتاب بتركيا، ويضم فريق بحثه باحثين سوريين وأكراد وأتراك وأمريكيين الذين قضوا وقتا كبيرا في العمل في سوريا والشرق الأوسط، و يجيد الباحثون اللغات المحلية مكرسين جل عملهم للتحليل الموضوعي للأحداث في سوريا وفي البلدان التي بها جاليات سورية في دول مجاورة. ويقدم المركز البحثي خدمات المتابعة والتقييم ودراسات جدوى، وتبلغ خبرة باحثي المركز ١٠ سنوات من العمل في أفغانستان وباكستان والعراق وسوريا ومصر وتركيا.

وقد انفردت المؤسسة التي تمولها الحكومة التركية بإجراء دراسة عن تغطية الإعلام الروسي للصراع على السلطة في سوريا، البلد الذي يحتفظ نظامه السياسي بعلاقات وثيقة مع موسكو حتى الآن.

فقد لعب الاتحاد الروسي دورًا محوريا في الصراع السوري وساعدت مناوراته الدبلوماسية على بقاء نظام الأسد في سدة الحكم بعد ٣ سنوات من الصراع المسلح، وتطلب وضع روسيا الاستراتيجي كفاعل في الصراع السوري فضلا عن أهميتها الجيو-سياسية الكبرى فهماً أفضل في العالم الغربي خاصة الفهم المتعلق بكيفية تغطية النزاعات الدولية في وسائل الإعلام الروسية.

ولتحقيق هذا الهدف، تقدم الدراسة تحليلا للتغطية الإعلامية الروسية للصراع الروسي من أكتوبر ٢٠١٣ إلى نهاية مارس ٢٠١٤، وتم استخدام وسائل التحليل الكمي والكيفي للتعرف على الأفكار السائدة المتداولة في الإعلام الروسي واتجاهاتها وطرق عرض هذه الأفكار، فيما كانت هذه القوالب يجري ربطها بسياق نشر الأخبار في روسيا الحالية وكيف يؤثر الوضع السياسي على اتجاهات الأخبار ويتأثر بها.

ورصدت الدراسة صورة الصراع السوري وأطرافه في ١١٩ قصة خبرية نشرت في وسائل الإعلام المطبوعة والالكترونية والراديو والتليفزيون من خلفيات أيديولوجية عدة وبلغ عدد وسائل الإعلام المدروسة ٣٩ وسيلة إعلامية معظمها كانت متعاطفة ومرتبطة بالدولة الروسية، ثم تأتي الوسائل المعتدلة الوسطية وأخيرا الوسائل الناقدة للدولة الروسية.

واختيرت الفترة الزمنية السابقة لأنها تضمنت عدة تطورات في الدور الروسي في الصراع، وكذلك شهدت الإعداد لمؤتمر جنيف ٢ للسلام وكذلك الصراع في شبه جزيرة القرم.

وعكست نتائج الدراسة بشكل كبير بيئة الإعلام الروسي الموالي في أغلبه للدولة الروسية في تبني أطروحاتها بشأن الصراع والدفاع عنها، أو على الأقل الامتناع عن معارضتها بشكل واضح. وأظهرت تغطية سوريا في الإعلام الروسي أن السياسات الروسية نادرا ما يتم نقدها، وعلى العكس خرج عدد

قليل من المطبوعات عن خطاب الدولة (أبرزهم صحيفة نوفايا جازيتا) فمعظم التقارير ساندت بقوة الجهود العسكرية والدبلوماسية الروسية وهاجمت بوضوح فرقاء الصراع ما عدا الفصيل الحاكم.

وبينما كانت التغطية الإعلامية في الأغلب لا مبالغة فيها ولا إشعال للصراع المسلح، إلا أن الإعلام أبرز تعاطفه مع نظام الأسد ووقوفه ضد بقية الفرقاء بأساليب حاذقة مثل: استخدام أساليب الحذف والإضافة، أو الحضور/ الغياب، تسمية السياسات بلغة محبذة إن كانت للأسد ونظامه ولغة منفرة إن كانت لبقية فضائل الصراع، وينطبق هذا على القوى الفاعلة في الأحداث التي تم تأطيرها بشكل بالغ السلبية إن كانت في غير صالح الدولة الروسية، وبرز معلقون حكوميون على الأحداث مثل (سيرجي لافاروف) على حين غابت بشكل عمدي الرؤى المعارضة أو البديلة لرؤى الدولة.

بل أن الوسائل الضئيلة ذات الأصوات المعارضة في روسيا (نوفايا جازيتا، راديو موسكوفي) لم تعارض سياسة الدولة على طول الخط، بل اتفقت معها في أغلب ما تراه بشأن الصراع ربما لتأثير الرقابة الذاتية أو إظهار عدم معارضتها للدولة في الشئون الخارجية.

ومن المعروف أن الرأي العام الروسي لا يؤثر كثيرا على وسائل إعلامه ولذا يبقى الربط بين رؤى الإعلام ورؤى الرأي العام الروسي غير واضح، وهو الأمر الذي له تداعياته بشأن أي صراع تنخرط فيه روسيا دوليا.

وتشير نتائج الدراسة أن معالجة الولايات المتحدة في التغطية (أو الغرب بصفة عامة) أظهرتها كشريك دولي ضروري في الدبلوماسية فيما كانت تتعرض لبعض النقد أحيانا إلا أنه في كل الأحوال لم تتطور التغطية لاتجاهات ضد أمريكية فيما أظهرت النتائج أن وسائل الإعلام قدمت روسيا على أنها شريك متعاون ومتفهم ووسيط رائع في الصراعات الدولية.

وبالنسبة لموضوع الأقليات العرقية والدينية، تم تصوير الأمر على أنه مشكل في الصراع السوري وكثيرا ما تم الإشارة إلى كيفية تعامل الدولة الروسية نفسها مع أقلياتها الإثنية والدينية بشكل فيه بعض الإثارة وكثير

من التحذير، إذ لعبت التغطية على استخدام استمالات الخوف من تفكك سوريا والذي يخدم العدو التقليدي إسرائيل.

ثالثا: الحرب في أوكرانيا والقرم

١ـ الدعاية في الحرب في أوكرانيا:

بعض الأساليب التي تم استخدامها في هذه الحرب كانت تقليدية مثل استخدام المعلومات المغلوطة (الكذب)، وأنصاف الحقائق، وإطلاق الصفات والأحكام على أطراف الصراع ولكن المعركة أيضاً شهدت استخدام تشكيلة مذهلة من الأسلحة المعلوماتية الحديثة تتضمن الإعلام الإلكتروني والمدونات ووسائل التواصل الاجتماعي.

فعلى حد قول ديمتري كيزلييف المذيع والذي يرأس وكالة المعلومات الحكومية الجديدة (روسيا اليوم): «قديما كانت المعركة تشهد تمهيداً نيرانياً بالمدفعية، أما الآن تحتاج المعركة إلى تمهيد معلوماتي بالإعلام قبل الهجوم».

وكل الجهات تقريباً استخدمت الدعاية: أوكرانيا، روسيا، الولايات المتحدة ودول غربية أخرى، ولكن بالنسبة لموسكو فإن الحرب في أوكرانيا سارعت بإيقاع التغير العميق في الإعلام الروسي نحو تركيز مصادر المعلومات في يد الحكومة/ الدولة وتعبئتها من أجل المعركة، ووضعت وسائل إعلامية نفسها تحت إمرة بوتين والكرملين لإشعال الرأي العام في روسيا وفي المنطقة بأسرها، والتأكيد على السياسات الروسية ورؤاها وقيمها على المستوى العالمي.

نجح فلاديمير بوتين في الاستحواذ على المشهد الإعلامي في روسيا وأجزاء من أوكرانيا ومد بصره بمساعدة الكرملين إلى الجمهور العالمي الأوسع وأعاد بناء ماكينة الدعاية الإعلامية التي انهارت مع الاتحاد السوفيتي السابق قبل عقدين من الزمان.

وهو يحسن من رسالته عبر التشكيك في القيم الغربية ومهاجمة ما يسميه النفاق الأخلاقي الأمريكي والأوروبي معرفاً روسيا على أنها قوة عالمية غير غربية لها قيمها الخاصة مؤكداً أن المنافسة السياسية والعسكرية وكذا الاقتصادية والمعلوماتية لم تنته من العالم وهناك مراكز دولية تنظر إلى قوة روسيا بقلق واهتمام.

وبالنسبة لرئيس الدعاية الروسي (ديمتري كيزلييف) فإن المعركة قد تم كسبها بتبديل الأدوار، فروسيا تدعم حرية المعلومات على حين يهدمها الغرب.

٢ـ الإستراتيجية الخفية:

الكذبة الأولى ظهرت في نهاية فبراير ٢٠١٤ عندما قام رجال في ملابس عسكرية خضراء مموهة يحملون الأسلحة باحتلال معظم المواضع في شبة جزيرة القرم، هذا الجزء من أوكرانيا الذي يعيش فيه أقلية تتحدث الروسية، وعلى الرغم من أن كل المؤشرات كانت تقول أن هؤلاء الرجال هم من الجيش الروسي فقد أنكر فلاديمير بوتين ذلك في مؤتمر صحفي في ٤ مارس قائلاً: إن المناطق ما بعد السوفيتية مليئة بهذا الزي وأي جهة يمكن أن تشتريها.

وفي اليوم الثاني ردت الخارجية الأمريكية اللطمة على بوتين وصرحت أن العالم لم يشهد رواية روسية مذهلة كهذه منذ أن كتب الأديب الروسي ديستوفسكي: أن «عبارة ٢×٢=٥ لها جاذبيها لدى بعض الناس».

وأكدت الخارجية أن هذه الوحدات العسكرية روسية فهم يقودون مركبات عسكرية ذات لوحات تابعة للجيش الروسي، وعندما تم استجوابهم من قبل وسائل الإعلام والقوات المسلحة الأوكرانية قال الجنود أنهم روس ولكن الأهم أنهم كانوا مسلحين بأسلحة حديثة لا يمكن أن يمتلكها مدنيون أما المسئولون فقد واصلوا الكذب بثبات عندما صرح وزير الدفاع الروسي أن هذه التقارير ما هي إلا هراء.

ووصل الحال في فضاء المدونات لذرى مذهلة عندما قام المحررون الغربيون بنشر تغريدات على (تويتر) لصور لوحات السيارات الروسية في الوقت الذي أشار فيه المدونون الأوكرانيون لهم على أنهم (رجال خضر صغار) أما المدونون الموالون لروسيا فقد استخدموا الإفيه/ العبارة الجاذبة (الرجال المهذبون) عندما نشروا كيف يتصرف هؤلاء الجنود المدججون بالسلاح بود مع أطفال أوكرانيين صغار.

وفي إبريل وفي مؤتمر صحفي لبوتين في مناسبة الاستدعاء السنوي للجنود الروس كشف على الحقيقة معترفاً بأن الجنود في القرم هم من الروس وهم هناك لدعم وحماية حياة الأقلية الروسية في القرم.

وهذه القصة التي تحمل طباع حياة أو موت (حماية الروس والمتحدثون بالروسية من الأعمال العدوانية الذي يرتكبها الفاشيون في القرم) كانت القصة التي عني الكرملين بتسويقها محلياً وعالمياً لتبرير غزوه للقرم، تلك القصة التي كانت تذاع في قنوات التليفزيون الروسي على مدار الساعة، تلك القنوات التي تصل إلى الجمهور الأوكراني في جنوب وشرق البلاد في المناطق التي تتحدث الروسية والتي تعتبر فيها قنوات: فيستي، روسيا ٢٤، القناة الأولى، RTR، NTV Mir باقات معتادة المشاهدة لهذا الجمهور.

وقد قامت الحكومة الأوكرانية الجديدة بسرعة بمنع بث هذه القنوات الروسية في أوكرانيا عندما قامت روسيا بمنع بث القنوات الأوكرانية من القرم، ولكن لأن هذه الحرب الإعلامية هامة لموسكو، فإن الانفراد بقصة وحيدة لا يتشكك فيها أحد كان أمراً حيوياً، ولذا ففي مدن عدة من شرق وجنوب أوكرانيا كانت المهمة الأولى للقوات الموالية لروسيا هي السيطرة على أبراج التليفزيون.

وفي تقرير لصحيفة (وول ستريت): وصفت الصحيفة ذلك بالجهود السرية لضباط المخابرات الروسية الذي قاموا بمصاحبة الفنيين في احتلال برج التليفزيون في مدينة (سلافيانسك) الأوكرانية وقام هؤلاء الفنيون بوضع إشارات القنوات الروسية بدلاً من الأوكرانية.

وقدمت هذه القنوات الروسية للمشاهدين عالماً موازياً فيه «أزمة إنسانية» بشعة، إذ تتعرض الأقلية التي تتحدث الروسية في القرم لهجوم الأوكرانيين المتطرفين، والنتيجة أن مئات الآلاف من الروس يفرون بحياتهم هرباً من القتل وأعمال السلب والنهب، ووصفت القنوات الروسية المحتجون على الغزو في شوارع (كييف) العاصمة الأوكرانية بالمتطرفين القوميين وامتلأت القنوات الروسية بصور الصلبان المعقوفة والدماء نافخة في الذعر القديم الذي يعود إلى الحرب العالمية الثانية، قائلة أن الفاشية قد عادت من جديد.

وهاجمت الخارجية الأمريكية ما أسمته القصة الكاذبة والخطيرة التي اختلقتها موسكو، شارحة أن «آلة الدعاية الروسية مستمرة في الترويج لخطاب الكراهية والحض على العنف بخلق هذا التهديد الأوكراني المزعوم الذي لم يحدث أبداً وأننا لن نقف ساكتين و نحن نرى المعلومات الكاذبة التي يروجها المهيجون/ المحرضون الروس الذين ينشرون الذعر والقلاقل في شرق أوكرانيا».

وفي إبريل عندما سيطرت الجماعات الموالية لروسيا على مبنى حكومي في جنوب أوكرانيا وصف الرئيس بوتين المنطقة بأنها (روسيا الجديدة)، وهي تعبير قديم تم استخدامه عندما احتلت روسيا القيصرية القرم قبل ٣٠٠ عام.

وشاركت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة هيلاري كلينتون في الحرب الكلامية ولطخت بوتين بعبارة (النزعة الإنضمامية/ ضم البلدان قسراً) مضيفه أن ذلك هو ما فعله هتلر في الثلاثينات من القرن الماضي عندما كان يتخذ من الأقليات ذات الأصل الألماني والمتحدثون بالألمانية ذريعة لضم مناطق من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا بالقوة.

وفندت الأمم المتحدة الإدعاءات الروسية بأن هناك هجوماً على المتحدثين بالروسية في أوكرانيا في تقرير أعده مراقبيها لشئون حقوق الإنسان الذين حذروا من أن قصص كاذبة متطرفة يتم استغلالها لأغراض سياسية بينما لم تذكر وسائل الإعلام الروسية شيئاً عن حالات التحرش بأفراد من الأقلية الروسية الذين يؤيدون الرئيس الأوكراني يانكوفيتش، وعندما قطعت

القوات الروسية بث القنوات الأوكرانية واحتكرت المعلومات مروجة إشاعات لا أساس لها من الصحة عن قطارات مليئة بالمتطرفين المسلحين الذين يرغبون في تصفية الحسابات مع المتحدثين بالروسية في القرم.

وقامت عدة مواقع على الإنترنت موالية لـ(كييف) بخوض حربها الدعائية الخاصة بإنشاء مواقع تفضح الهجوم الدعائي الروسي الكاذب فتم إنشاء موقع باللغة الروسية اسمه (ضد الدعاية) الذي سرعان ما تم نشره على شبكة التواصل الاجتماعية الروسية (في كونتاكتي Vkontakte المناظرة للفيس بوك والذي كان يقدم نفسه بعبارة: «إنهم يقنعوننا ويلقّوننا ويفرضون علينا روايتهم، إنهم يتلاعبون بنا» واصفاً وسائل الإعلام الروسية.

وكانت مهمة الموقع (فصل الحقائق عن الدعاية) مستخدماً الوسائل البحثية للبريطاني روبرت كول في كتابه (الموسوعة الدولية للدعاية) مقدماً تقريراً يومياً عما تذيعه القنوات والصحف الروسية وفضح تكنيكات الدعاية في تقاريرها كما فعل في برنامج فستي على قناة روسيا ٢٤ مقدماً تحليل لكل جزء من البرنامج مبرزاً ما يتعلق بشيطنة العدو، الكذب، التبسيط المخل، تقديم الرأي على أنه حقيقة وهكذا.

والحق أن المشاهدين الروس كان لديهم الاستعداد لتقبل قصة الحكومة بأن النازيين هم وراء الانتفاضة الأوكرانية ضد روسيا فذكريات الحرب العالمية الثانية تثير عواطف وطنية قوية وتوصف عادة بأنها الحرب العظمى لاستعادة أرض الوطن ويعتبرها الروس أهم انتصار لروسيا في القرن الماضي بل في تاريخها الحديث كله.

وفي ديسمبر ٢٠١٤، قابل ديمتري كيزلييف الصحفيين العاملين بوكالة أنباء (رايا نوفوستي) بعد إعادة هيكلتها لتصبح جزءاً من الخدمة المعلوماتية الدولية (روسيا اليوم) أهم شبكة معلوماتية ومجموعة قنوات تدعمها الكرملين وتصرف عليها بسخاء من أجل كسب العقول في الخارج قائلاً: «لا يوجد شيء اسمه الموضوعية، هل بي بي سي موضوعية ؟!، هل سي إن إن موضوعية؟!، إنها أسطورة روجها الغرب لفرض رؤاهم علينا وحتى يشوهوا

بلدنا قيمة ويقدموه على أنه كائن دولي غريب» وأقول لكم: لقد مضى عهد الصحافة النائية بنفسها عن شئون الوطن مختتماً كلامه بالتحذير: إذا كنتم على استعداد للانخراط في أي نشاط يخالف خططي لهذه الوكالة، فإنني أقول لكم الآن: لن أسمح بذلك.

وقد وصف كيزلييف تطوره الشخصي الداخلي كصحفي قائلاً أن ذلك ليس لأنني أساند بوتين على طول الخط، ولكني أفهم أن إعلامنا يختلف عن إعلام الغرب، لأن لنا تعريفاتنا الخاصة لما هو جيد وما هو سيء ومهمة الإعلاميين هي التأكيد على هذه القيم الروسية.

٣ـ جبهة الوطن:

بعد يومين من موافقة سكان القرم على الانضمام لروسيا، وقف فلاديمير بوتين على خشبة مسرح عملاقة في الميدان الأحمر محاطاً بفرق الموسيقى العسكرية في زيهم الأبيض الأنيق ونظر لبحر من الوجوه السعيدة قائلاً: بعد رحلة طويلة وغير عادية، عادت القرم وسيفاستبول إلى روسيا، إلى أحضان الوطن، وهتف الجميع المجد لروسيا فيما كانت تتدفق مشاعرهم الحارة أثناء عزف السلام الوطني الروسي الذي جمع بين موسيقى أيام الحقبة السوفيتية وكلمات ألفت في الحقبة بعد السوفيتية والتي ملأت الميدان: «من البحار الجنوبية إلى المناطق القطبية تمتد حقولنا وغاباتنا، نحن متميزون في العالم، ليس لنا نظير ولا شبيه، فهذه أرضنا الأم يحميها الرب».

وقامت كاميرات كل القنوات الروسية تقريباً التي نقلت الحدث بنقل صورة بانوراميه للحشود مركزة على الوجوه الشابة السعيدة المتألقة بالفرح ثم على العلم الروسي بنسره القيصري ذي الرأسين وألوانه البيضاء والحمراء والزرقاء الذي تألق في شاشة عملاقة تحمل عبارة (القرم في قلبي).

وعقب احتلال روسيا للقرم والتصويت على انضمامها للاتحاد الروسي ارتفعت شعبية الرئيس بوتين، وفي استطلاع لمركز (ليفادا) الروسي أعرب ٨٢٪ من الروس على موافقتهم على قيادة بوتين وقال ٥٨٪ منهم أن البلاد تخطو في الطريق الصحيح وهو ما اعتبرته صحيفة موسكو تايمز شيئاً لم يحدث قبل ٢٠ عاماً.

بعد انتهاء رئاسة بوتين الأولى في ٢٠٠٤، كان بوتين قد نجح في أن يجعل خيوط كل شبكات التليفزيون الروسية في يده متحكماً في سياستها التحريرية فيما شكلت هذه الشبكات شبكة موحدة عملاقة لتشكيل الرأي العام الروسي، نعم مازالت تتمتع بعض وسائل الإعلام بدرجة من الحرية التحريرية ولكن هذه الأصوات المستقلة المعارضة أحياناً لا تشكل تحدياً سياسياً لبوتين.

فيما أوضحت ماشا ليبمان الأستاذة بمعهد كارنيجي في موسكو أن الحكومة الروسية لم تخرس كل صوت معارض في الإعلام ولكن حرية التعبير المحدودة هذه تعمل كصمام أمان لإطلاق البخار المحبوس لدى هؤلاء الذين لا يساندون الوضع القائم، نعم هناك وسائل إعلام مازالت تعمل ولكنها كانت دائماً بموافقة وعناية الحكومة أو بالأحرى تحت رحمتها وقد استخدمت الحكومة هذه الرحمة بكل شكل درامي مؤثر.

٤ـ إعلام الإنترنت:

قام أحد أهم المواقع الإخبارية الروسية على الإنترنت Lenta.ru بنشر حوار صحفي مع عضو جماعة قومية أوكرانية واحتوت المقابلة على وضع رابط لموقع رئيس هذه الجماعة المدعو (ديمتري ياروش) التي وضعته الحكومة الروسية على قائمة المطلوبين كإرهابي.

وقامت الخدمة الفيدرالية لمراقبة الإعلام والاتصال وتكنولوجيا المعلومات (Roskomnadzor) بتحذير الموقع الإخباري بأنه يمكن مقاضاته بتهمة نشر التطرف بنشره للحوار الصحفي، وتم تغيير رئيسة تحريره (جالينا تيمشينكو) التي شغلت هذا المنصب لفترة طويلة وتم تعيين رئيساً أخر موالياً للكرملين.

وقد جاء النزاع في أوكرانيا فرصة طيبة لإعادة تفسير التشريعات المقيدة للإعلام بشكل مطاط، في الوقت الذي مرر البرلمان تشريعاً في فبراير ٢٠١٤ يسمح للحكومة بإغلاق أي موقع إلكتروني دون حكم قضائي إذا احتوى على معلومات متعلقة بالتطرف الذي تم تعريفه بشكل واسع بحيث

obeikan.com

يمكن أن يكون أي شيء تطرفاً، والقانون وسيلة أو أداة حكومية نافعة لغلق أي شيء.

ونشر فريق التحرير لموقع Lenta.ru الإخباري خطاباً لمتابعيه يصرح: بأنه في العامين الماضيين تعرضت الصحافة الحرة في روسيا للتقييد، بعض المطبوعات يتحكم بها الكرملين مباشرة، والبعض الأخر من خلال وسطاء أو عملاء، وكثير من المحررين يخافون أن يفقدوا وظائفهم وبعض الوسائل تم إغلاقها والبعض سوف يتم إغلاقه في الشهور القادمة، والمشكلة أنه ليس فقط بأنه لن يوجد مكان لكي نعمل فيه، بل لن يوجد شيء لنقرأه.

وتعرض أهم موقع روسي للتواصل الاجتماعي Vkontakte للضغط أيضاً، فقد صرح مؤسسه ومديره السابق (بافيل ديوروف) بأن المخابرات الروسية FSB وريثة المخابرات السوفيتية KGB أمرته بإعطاء معلومات شخصية عن النشطاء المشتركين في المعارضة وفي (الانتفاضة) في كييف، وقد تم إقالته عقب رفضه الاستجابة.

وقد فر من روسيا في إبريل ٢٠١٤ قائلاً أن موقع Vkontakte قد أصبح تحت السيطرة الكاملة للرسميين الموالين للكرملين وهو ما رفضه الملاك الجدد قائلين أن ديوروف يحاول تسييس المسألة.

فيما تضيف أستاذة الإعلام (ماشا ليبمان) أن الحكومة الروسية طورت أدوات مختلفة للتحكم في الاتصال الإلكتروني عبر الإنترنت مثل إنشاء القوائم السوداء للإنترنت والقانون المناهض للقرصنة فيما ينتهز بوتين كل مناسبة يتحدث فيها لتذكير الجمهور الروسي أن الإنترنت مشروع للمخابرات المركزية الأمريكية وأن الخدمات الخاصة الروسية تقوم بحماية المعلومات السرية لهيئات الحكومة ووزارة الدفاع خاصة.

أصبحت الحكومة الروسية تراقب فضاء الانترنت عن كثب منذ أن أصبح وسيلة فعالة لإدارة النقاش العام وخلق المجال العام للروس لتداول ما يؤرقهم من القاعدة للقمة بشكل طبيعي وعضوي منذ تظاهرات ديسمبر ٢٠١١، وفي ٢٠١٤ قام البرلمان الروسي بتمرير قانون يجبر مواقع التواصل الاجتماعي

الروسية على الاحتفاظ بالخوادم العملاقة في روسيا وحفظ كل المعلومات عن مستخدميها لمدة ٦ شهور، فضلاً عن قانون أخر يجبر المدونات التي لها أكثر من ٣٠٠٠ زائر يومياً بتسجيل نفسها على أنها وسيلة إعلامية بتقديم أرقام الهواتف والعناوين، وفي الأمم المتحدة، تنتهز روسيا كل مناسبة متاحة للحث على التعاون الدولي في الجوانب القانونية للإنترنت.

٥ـ سحب المطر:

تليفزيون دوجد Dozhd TV الذي يعني بالروسية تليفزيون المطر هو قناة جذبت شباب المشاهدين من الطبقة الوسطى الناجحة في موسكو وتبث إرسالها على قمر صناعي خاص، وكذلك على قنوات الكابل وعبر الإنترنت، وتتضمن أخبارها نقداً للحكومة وتعطي جزءاً من وقتها للشخصيات المعارضة لبوتين مثل الناشط (إلكسي نفالني) وسبق أن نشرت عن إدعاءات بالفساد وانتهاك حقوق الإنسان أثناء الإعداد للألعاب الأولمبية الشتوية في سوتشي وعن الانتفاضة في أوكرانيا.

ولكن في يناير الماضي يبدو أن تليفزيون (دوجد) قد تجاوز الخط المسموح له، ففي الذكرى السبعين لفك حصار النازي عن مدينة لينينجراد، قامت القناة باستطلاع رأي المشاهدين عما إذا كانت الحكومة السوفيتية كان لزاماً عليها تسليم لينينجراد لتجنب إزهاق أرواح مئات الآلاف من الروس الذين راحوا ضحية حصار ألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية.

وقد أعتبر إثارة الموضوع نوعاً من الهرطقة الوطنية وأثيرت ضجة سياسية، واتهمت الحكومة القناة بخرقها المادة ٤٩ من قانون الإعلام الذي يحض على احترام القوانين والمصالح القانونية للمواطنين لأن مثل هذه الأسئلة يمكن تفسيرها على أنها إهانة للمحاربين القدماء ولسكان لينينجراد الذين بذلوا كل جهدهم لتحقيق النصر على المحتل النازي.

وقد اعتذر رئيس القناة (ميخائيل زيجار) علناً ولكن مديري شركات الكابل والأقمار الصناعية رفعوا القناة بسرعة ومنعوها من البث ليحرموها من ٨٠٪ من دخلها و٩٠٪ من مشاهديها، وصرحت مديرتها (ناتاليا سنديفا) بأن

obeikan.com

القناة لديها شهر أخر لتبقى على قيد الحياة في الوقت الذي ظهر بوتين في إبريل على الشاشات الحكومية ليصرح أنه: يحاول إنقاذ القناة من أن تلفت الأنظار كثيراً وتثير حفيظة جهات التحكم الحكومي مضيفاً: إنها قناة شيقة لها مشاهدين شبان ولكنها ارتكبت أخطاء مهنية كبيرة وأهانت عدد كبير من المواطنين ولكن مديرتها اعترفت بهذه الأخطاء ونحن نحاول أن نجد حلاً للموقف.

وعقب تصريحات بوتين قام مدير شركة الكابل بالتصريح بأنه على استعداد للتفاوض لإعادة القناة ومنذ أن حل بوتين محل القناة في التوسط لما نالها على يديه انتشرت التصريحات بأن تدخل الرئيس في أي مشكلة كفيل بحلها بسرعة البرق.

٦- إسماع العالم رسالة موسكو:

يعتبر الكرملين أن من بين مهامه الأساسية التي يضطلع بها الآن هو أخذ رسالته تلك وإسماعها للعالم عبر القنوات ووسائل الإعلام الروسي الدولية بما فيها وكالات الأنباء.

وفي كل جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق تقريباً، توجد أقلية روسية أو تتحدث الروسية ذات نفوذ قوي في الإعلام في كازاخستان وتركمنستان وطاجيكستان وغيرها.

وللوصول إلى الجماهير في أوربا الغربية والعالم، بدأ الكرملين من ١٠ سنوات في إقامة عدد من الوسائل الإعلامية المنصرف عليها بسخاء لإسماع العالم رسالة روسيا والكرملين واستعادة صورة روسيا القوية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، وكل المسئولين الروسي بما فيها بوتين دعوا إلى استخدام القوة الناعمة، والقوة الإقناعية للإعلام كجزء من ترسانة أسلحة السياسة الخارجية.

وقد عرف بوتين مفهومه الخاص للقوة الناعمة للدولة بأنه: "أداة جيو-سياسية تحت سيطرة الحكومة للتأثير في الآخرين»، وكان قد انتقد الاستخدام غير القانوني للقوة الناعمة من قبل الدول الغربية وعلى رأسهم

obeikan.com

الولايات المتحدة التي تتدخل في شئون الدول المستقلة، وتزرع القلاقل في الدول المستقرة وتتلاعب بالرأي العام تحت ذريعة تمويل مشروعات حقوق الإنسان والدفاع عن الحقوق الثقافية للأقليات.

أما رسالة روسيا للعالم فقد وضعها رئيس فلاسفتها بوتين في مقال له عشية استلامه الرئاسة في ١٩٩٩ الذي حمل عنوان (روسيا في بداية الألفية الجديدة) بقوله: «روسيا كانت وستظل قوة عظمى، أنه شيء محكوم بصفاتها الجيو- سياسية والاقتصادية والثقافية الذي لا فرار منها، والتي تؤثر بدورها وتحكم عقلية الروس وحكومتهم خلال تاريخ روسيا، فتقاليد وقيم روسيا تتضمن الوطنية، والإيمان بعظمة روسيا يعني الإيمان بدولة قوية».

وفي مارس وعندما اقتحمت قواته القرم شدد في رسائله على مهاجمة الغرب في «معلقات» طويلة يذيعها الإعلام الروسي أغلبها هجاء ضد الغرب وسياساته وخاصة نفاقه، إذ من حق روسيا رفض القيم الغربية وتطوير قيمها الذاتية التي تحمل رؤيتها المغايرة للعالم بقوله: "إنهم دائماً ما يحاولون التضييق علينا في مخانق كثيرة لأن لنا موقفنا المستقل الذي نحافظ عليه"، وهو ما يردده بقية المسئولين الروس مثل ألكسندر سيمرنوف رئيس العلاقات العامة والإعلام بالكرملين بقوله: «إذا تكلمنا عن الديمقراطية فإنها أغلى سلعة في العالم أنتجتها الولايات المتحدة، أغلى من الكوكاكولا، وهي تستخدم للي ذراع أي دولة في العالم لا تشتريها بالمواصفات الأمريكية».

وأحد الأذرع الإعلامية الخارجية لآلة الدعاية الروسية هي قنوات روسيا اليوم التي تبث بالإنجليزية والعربية والأسبانية وترأسها مارجريتا سيمونيان المعروفة في الغرب بالطفل المدلل ذات الصوت الصريح التي دائما ما تصيح في وجه أمريكا المنافقة.

فبعد إنشاء شبكة القنوات في ٢٠٠٥ بفترة بسيطة، تحولت السياسة التحريرية للقناة من إظهار الحياة البرية والبحرية والجغرافية لروسيا الواسعة إلى بث نوع مغاير من نشرات الأخبار الحافلة بنظريات المؤامرات التي تدين السياسات القمعية للحكومة الأمريكية مستخدمة تكنيكاً سوفيتياً قديماً هو (وماذا عنهم؟!) كاشفة زيف الديمقراطية الغربية وقيمها المنافقة.

وقد استقالت إعلاميتين بارزتين من القناة الانجليزية RT عقب غزو روسيا للقرم فيما اعتبرته روسيا نوعاً من الحرب النفسية التي يشنها المحافظون الجدد في واشنطن عليها، وكل التكنيكات الدعائية لقنوات روسيا اليوم لم تجد إلا الهجوم من المسئولين الأمريكيين وعلى رأسهم وزير الخارجية جون كيري، وإن عبر بعضهم مثل نائب وزير الخارجية ريتشارد ستينجل عن إعجابه برجوع آلة الدعاية الروسية عقب الضعف الذي اعترها قبل عقدين من الزمان بقوله: «لقد كنت مندهشاً وأنا أرى هذه القنوات الروسية المنظمة الحديثة بتقارير قنواتها المتقدمة التي تحاكي الإعلام الغربي».

٧ـ تطور قنوات (روسيا اليوم) إلى وكالة أنباء:

في ديسمبر ٢٠١٣، قبل شهر من الاحتجاجات في كييف، أذهل الرئيس الروسي فلاديمير بوتين دوائر الإعلام الروسي بقرارين مدهشين:

الأول: تصفية وكالة الأنباء الروسية (رايا نوفوستي) التي أنشئت عام ١٩٤١ كأداة للدعاية ضد النازية في الحرب العالمية الثانية في ظروف ثلاثة شهور وذلك مع راديو (صوت روسيا) الذي تم إنشاءه عام ١٩٢٩ نحن اسم (راديو كومنترن).

ونص القرار على إنشاء وكالة دولية للمعلومات والإعلام تحت اسم (روسيا اليوم) مهمتها الترويج لسياسة الدولة الروسية والحياة العامة في الاتحاد الروسي.

الثاني: هو تُعيين (ديمتري كيزلييف) رئيساً للوكالة الجديدة (روسيا اليوم) أما رئيسة RT السابقة مارجريتا سيمونيان فترجع للعمل كرئيس تحرير شبكة قنوات RT، وروسيا اليوم الجديدة لا يتم التعبير عنها بالاختصار RT الذي يقتصر على التليفزيون فقط، على أن تحل محل المواقع الالكترونية لوكالة (رايا نوفوستي) المواقع الالكترونية لراديو سبوتنيك.

وكان تعيين كيزلييف صدمة للإعلاميين الروس لأنه الشخصية الإعلامية الروسية ذات التعليقات الكارهة للغرب والولايات المتحدة والذي يذهل المشاهدين دائماً بتعليقاته العدائية المثيرة مثل: «روسيا هي الدولة

الوحيدة على وجه الأرض التي يمكن أن تحول الولايات المتحدة إلى رماد نووي مشع»، ومثل مهاجمته للقيم الغربية بقوله أن: «تغريم الشواذ جنسياً ليس كافياً، يجب أن يحرموا من التبرع بالدم أو المنيّ وفي حالة إصابتهم في حادث سيارة، يجب أن تحرق قلوبهم».

وعندما سخر موقع سي إن إن من صورة تمثال القوات الروسية في الحرب العالمية الثانية، رد كيزلييف بتصوير تمثال الجنود الأمريكيين أثناء تحرير جزيرة أو يجيما في نفس الحرب بمجموعة من الشواذ جنسياً يمارسون الجنس قائلاً: «السخرية ليس هناك أسهل منها، إنها كالحمى يمكن أن تصيب أي شيء وكل شيء».

أما عن (سيفتلانا ميريونوك) التي تعد من أقوى الشخصيات في الإعلام الروسي فقد حولت الوكالة السوفيتية القديمة (رايا نوفوستي) إلى وكالة رقمية متطورة تضم شبكة من مكاتب في ٤٥ دولة وتبث بـ١٤ لغة مختلفة.

وبعد سماعها قرار بوتين ـ الذي لم تبلغ به قبلا ـ جلست في مقر (رايا نوفوستي) في موسكو ناظرة إلى الصحفيين المصدومين والذين كان كثيراً منهم قد هرب من وسائل الإعلام الأخرى تحت ضغط الكرملين قائلة: «سوف نقوم بتصفية رايا نوفوستي أي تدميرها، ولكننا كموظفين حكوميين لن نناقش الأسباب أو دوافع الرئيس بوتين بل سنطيع الأوامر»، فيما علقت بعد ذلك قائلة: «أن القرار جاء في إطار سلسلة من الإجراءات لإحكام قبضة الدولة على الإعلام الروسي الذي يختنق أصلاً بكثير من القوانين».

ويتفق معظم المعلقين على أن رئيسة تحرير (رايا نوفوستي) السابقة كانت في مأزق صعب، فهي قد عينت عدداً من الصحفيين الليبراليين وحملت تقارير وكالتها صوراً للاحتجاجات في موسكو شتاء ٢٠١٢، والبعض اتهم تغطيتها لأحداث القرم بأنها كما لو كانت خاضعة للدعاية الغربية

أو كأن رئيسة التحرير السابقة هي شخصية معارضة مزروعة في الإعلام الموالي للكرملين، ولكن بشكل مهذب ومهني للغاية.

وكانت (ميريونوك) قد حظت باحترام كبير من الصحفيين المستقلين، وأعضاء المعارضة في موسكو وجماعات حقوق الإنسان في الوقت التي حظت فيه باحترام الكثير من رجال الكرملين المقربين لبوتين.

وبعد تدشين خدمة (روسيا اليوم) بالإسبانية علقت رئيس تحرير قنوات RT مارجريتا سيمونيان بأن وكالة (روسيا اليوم) ستأخذ اقترابا مختلفاً عن التيار السائد لوسائل الإعلام خاصة في الغرب الذين يتجاهلون مشكلات الديمقراطية والحرية في بلادهم وينتقدوها فقط في بلدان الآخرين خاصة روسيا.

الآن وقد حلت (روسيا اليوم) الجديدة محل (رايا نوفوستي) فلدى بوتين الوكالة الحديثة المتقدمة التي ستصل إلى أقصى الأرض بـ١٤ لغة و٤٥ مكتب موال له حول العالم دون أن تركز على الأخبار والتقارير الناقدة له، والتي ستروج لروسيا وقيمها المختلفة عن الغرب فاضحة نفاقه، ومركزة على الدعاية ضد الولايات المتحدة، أو كما قال رئيس الخدمة الإسبانية: «سوف نركز مع الوطنية والقومية وسنكون ضد الإمبريالية، سنؤسس الاحترام لسلطة الدولة في روسيا مركزين على قراءة التاريخ الروسي وحضارة روسيا المتفردة التي لا يمكن حصرها في كلمتين مثل الشرق أو الغرب».

٨ـ من نحن؟!

أكثر المهام حيوية التي يضطلع بها الإعلام الروسي الدولي هو إعادة تقديم روسيا للعالم أو إعادة تعريف روسيا ورغم أن الفكرة الوطنية أو القومية تبدو مشوشة في عيون المنظرين والأكاديميين الجادين وسط الفوضى السياسية واحتكار نخبة من السياسيين مع نخبة من رجال الأعمال للسلطة والثروة في البلاد، إلا أن الإعلام يحاول أن يركز على أوتار أو ثيمات بعينها.

يعيد الإعلام إحياء عناصر من الفترة القيصرية، ورموز من الحقبة السوفيتية مثل موسيقى السلام الوطني، ومفاهيم عامة للدولانية والوطنية، والتركيز على حضارة روسية كحضارة فريدة ليس لها نظير في العالم، ويتم وضع ذلك في صورة استعارات لغوية تحملها أقوال بوتين:

الوتر الأول: «القيم الغربية تركز على مفهوم النجاح الشخصي الفردي، ولكن قيمنا نحن الروس أقل برجماتية وربما أقل حكمة ولكن روحنا أوسع وهي تعكس اتساع بلادنا، أرواحنا أكثر كرماً».

الوتر الثاني: «روسيا محاطة بالأعداء، والسياسة التي تنتهجها الولايات المتحدة في توسيع حلف الناتو حتى حدود روسيا تؤكد ذلك في بولندا وفي بلدان البلطيق، لقد عادت سياسة احتواء روسيا من قبل القوى العظمى تلك التي حاولت طوال القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين تطبيقها».

الوتر الثالث: «أعداؤنا لا ينصاعون إلى القانون الدولي بل يتلاعبون به، إنهم يؤمنون بأنهم شيء متفوق وفريد وأنهم «شعب الله المختار» لدرجة أنه يمكن أن يقرروا مصير العالم، وأن الحق والصواب دائماً إلى جانبهم».

الوتر الرابع: «أعداؤنا يستغلون عبارات (التعددية الثقافية) و(التسامح) كحصان طروادة حتى يستطيعوا هدم روسيا وإضعافها، ولذا فإننا يجب أن نركز على ما يوحدنا كروس، يجب أن تظهر قيمنا التقليدية في المضامين الإعلامية وفي المدارس والجامعات وفي حياتنا الاجتماعية بل والجنسية، هناك كثير من الغربيين والأمريكيين معجبون بنا لأننا نحافظ على قيم الأسرة وقيم المسيحية».

وهو الأمر الذي يبدو للعيون الخارجية كما كان رجوعاً لإيديولوجية واحدة مثل أيام الاتحاد السوفيتي الشيوعية، ويعلق الخبراء أيضا بأن بوتين يعطي الغطاء الأيديولوجي للأنظمة الأوتوقراطية في العالم لتحدي النظام العالمي الذي تقوده الولايات المتحدة.

ورؤية بوتين القومية تلك هي رؤية متجذرة في الثقافة الروسية منذ الحقبة القيصرية لا سيما تلك المتعلقة باليهود ودورهم السلبي في الإعلام الروسي والحياة الروسية عامة، وكذا انحلال الحضارة الغربية الذي يهدد روسيا، ويمكن تتبع تلك الرؤية حتى الأديب الروسي الأشهر فيودور دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١).

فاليهود ـ حسب رأي دوستويفسكي ـ يوجدون في كل مكان، فهم يوجدون داخل التشكيل الاستعماري الغربي ويهيمنون على الرأسمالية الغربية، وهم بطبيعة الحال موجودون في كل الحركات الاشتراكية والثورية والفوضوية والعدمية، وقد جعل اليهود همهم إفساد الشعب العضوي الروسي إذ كانوا يقومون ببيع الكحول لهم وبالشرب من عَرَقهم ودمهم. وحينما أُعتق الأقنان، انقض عليهم اليهود واستغلوهم واستفادوا من هفواتهم الإنسانية. وهم في استغلالهم للناس لا يتسمون بالرحمة، فاستغلالهم للأقنان لا يختلف كثيراً عن استغلالهم للزنوج في الولايات المتحدة بعد إعتاقهم.

ويرى دوستويفسكي أنه حتى لو أُعطيت لليهود حقوقهم كاملة، فإنهم لن يتنازلوا قط عن أن يكونوا دولة داخل دولة، وهم يفعلون ذلك لأن مصالحهم مستقلة عن مصالح المجتمعات التي يعيشون في كنفها بل إنه يرى أن هناك مؤامرة يهودية عالمية عبر التاريخ لخدمة المصالح اليهودية المستقلة وللدفاع عنها. (راجع اليهود مزدوجي الجنسية أمثال بوريس بيريزوفسكي وفلاديمير جوسينسكي الذين كانوا يسيطرون على الإعلام وإزاحة بوتين لهم).

وإذا كانت الروح اليهودية هي الروح النفعية المادية، فإن حلقات المؤامرة اليهودية أصبحت على وشك الاكتمال، كما أن حكم اليهود للعالم اقترب وهيمنتهم الكاملة أصبحت أمراً وشيكاً، وقد لخص دوستويفسكي المسألة كلها بقوله إن ثمة تناقضاً أساسياً بين الفكرة السلافية (الروحية المسيحية) والفكرة اليهودية (المادية العلمانية)، وصعود الفكرة اليهودية يعني تراجُع الفكرة السلافية، أي أن اليهودي هو الآخر الذي لابد من القضاء عليه.

ويمكننا الآن أن نطرح السؤال التالي: كيف يمكن أن يعتنق أديب إنساني مثل دوستويفسكي مثل هذه الآراء التي لا تختلف كثيراً عما ورد في بروتوكولات حكماء صهيون وكتاب هتلر كفاحي؟ لمحاولة تفسير هذه الظاهرة، يمكننا أن نشير إلى بعض الأسباب، بعضها خاص بدوستويفسكي ورؤيته للكون والبعض الآخر خاص بالمجتمع

الروسي ككل وبوضع اليهودية فيه وموقف الروس منهم، ولنبدأ برؤية دوستويفسكي للكون:

كان دوستويفسكي يرى أن روسيا قد تكون امتداداً لأوربا ولكنها في الوقت نفسه نقيضها. ورغم إيمانه بأن روسيا مدينة لأوربا إلا أنه يرى أن«المرحلة الأوربية» في تاريخ روسيا قد انتهت، وأن أوربا تمثل الماضي، بينما تمثل روسيا المستقبل، والغرب، من منظور دوستويفسكي، دمرته المادية والقيم الديمقراطية وضمور الحس الخلقي وظهور النفعية والتمركز حول الذات.

وكان دوستويفسكي يؤمن بالرسالة الأزلية لروسيا. فكل أمة، حسب وجهة نظره، لابد أن ترى أن خلاص العالم يكمن في خلاصها هي، وأن هدفها لابد أن يكون توحيد شعوب العالم كافة تحت قيادتها.

ومن أهم أفكار دوستويفسكي فكرة الشعب العضوي (بالروسية: نارود)، فالشعب الروسي، حسب رأيه، شعب مرتبط بأرض روسيا الأم يستمد منها الطهر والأصالة، وهو شعب لم تفسده الحضارة الغربية بعد ولم يسقط في القيم التي دمرت هذه الحضارة. وهذا لا يعني عدم وجود فساد في روسيا وإنما يعني أن الفلاح الروسي حينما يرتكب الخطيئة يعرف أنها خطيئة، فهو لم يفقد بعد مقدرته على التمييز بين الخير والشر (أي أن حسه الخلقي لم يتم تحييده تماماً).

وتشكل الكنيسة الأرثوذكسية (أطهر أشكال المسيحية) الإطار الديني لهذه الرؤية الكونية، كما تشكل الجامعة السلافية الإطار الحضاري أو العرْقي لها. ولذا، فإن مستقبل العالم منوط بإرادة النارود الروسي تحت رعاية الكنيسة الأرثوذكسية وبقيادة القيصر.

رابعا: صورة الاتحاد الأوروبي ودول الجوار في الإعلام الروسي

رصدت دراسة مهمة صورة الاتحاد الأوروبي في وسائل الإعلام الروسية خلال الحملات الانتخابية وطبقت الأساليب الكمية والكيفية على مصدرين رئيسيين للمعلومات: مجمع الأخبار Yandex.news وقاعدة بيانات الصحف الروسية المسماة Integrum.

وتعلق التحليل الكمي في هذه الدراسة بمدى تكرار كلمة (الاتحاد الأوروبي) والصيغة المختصرة له في اللغة الروسية في الصحف المطبوعة والإلكترونية بشكل يومي، وذلك في الفترة من ٥ نوفمبر ٢٠١١ إلى ٣١ مارس ٢٠١٢ وهي الفترة التي حوت كل من الانتخابات البرلمانية والرئاسية الروسية، وتعلق الجزء الكيفي برصد مدى إيجابية صورة الاتحاد الأوروبي في أكثر الجرائد الروسية اليومية والأسبوعية تأثيرا.

وكانت القضايا المتعلقة بتركيز الملكية في الاقتصاد الروسي هي أكثر القضايا التي ذكر في سياقها الاتحاد الأوروبي، ولما كانت مبيعات الغاز الروسية هي القضية الأكثر أهمية للإعلام الروسي فقد كان لهذا الإعلام اهتمام حقيقي بالأزمات المادية في الاتحاد الأوروبي خاصة في اليونان، وكانت الصحافة الروسية حساسة لأي تقارير تتعلق بعلاقة الاتحاد الأوروبي بأوكرانيا وروسيا البيضاء. وتنبأت الصحافة الروسية بانحلال الاتحاد الأوروبي وهو ما عزاه الباحثان إلى الذكريات المريرة لانحلال الاتحاد السوفيتي.

وانتهت الدراسة إلى أن الانتخابات البرلمانية والرئاسية لم تغير من إدراك الصحافة الروسية للاتحاد الأوروبي على العكس من خطاب الصحافة تجاه الولايات المتحدة الذي علت نبرة العدائية فيه، ولم تجتذب الخطابات السياسية للاتحاد الأوروبي الصحافة الروسية التي لا تعترف بأوروبا الموحدة كلاعب سياسي رئيسي دولي مقارنة بالولايات المتحدة.

لاتفيا العدو:

وفي دراسة عن صورة لاتفيا في الإعلام الروسي، أثبتت النتائج كثيرا من الشكوك التي تواجدت قبلها ولكنها حملت أيضاً بعضاً من المفاجآت بالنسبة

لدولة منطقة البلطيق (لاتفيا)، إذ صنعت وسائل الإعلام الروسية بشكل ممنهج صورة العدو ولكن ليس في كل الموضوعات الخاصة بها.

وكما كان متوقعا، أبرز القضايا التي تم تأطيرها بشكل سلبي ووضعت لاتفيا في صورة العدو هي طريقة معاملة لاتفيا للمتحدثين باللغة الروسية، نظرتها إلى التاريخ وانضمام لاتفيا إلى حلف (الناتو)، ولكن تم تأطير بعض القضايا الثقافية والاقتصادية بشكل إيجابي وفي السنوات

الأخيرة بدأ اهتمام الإعلام الروسي ينخفض بجمهورية لاتفيا عموما.

تعتبر الأقلية الروسية في لاتفيا هي التيمة الاساسية التي تطغى على بقية التيمات أو الأفكار السائدة وتخدم الانتقادات التي تطال لاتفيا واستونيا حول معاملتهم للأقليات الروس عدة أغراض منها: العمل كورقة ضغط على لاتفيا والاتحاد الأوروبي وهي قضية يسهل على النخب الروسية الموافقة عليها، وتخدم أغراض بوتين وميدفديف في صناعة الإجماع الوطني، وتشيطن (لاتفيا) وتساهم في توحيد الروس.

وفي عيون الصحفيين الروس، فإن لاتفيا ليست فقط تنتهك حقوق الأقليات المتحدثة بالروسية ولكن تحصرهم في وضعية مهينة معتبرة إياهم ليسوا مواطنين خاصة في سياستها المتعلقة بإعادة هيكلة تعليم الأقليات ومحاكمة مسئولي المخابرات الروسية السابقين وعائلتهم بما يهدد وضعهم في لاتفيا كما يتم تصويرهم على أنهم جماعة واحدة ضد الحكومة اللاتفية، ووسائل الإعلام الروسية تساندهم على طول الخط.

يتم تصوير لاتفيا على أنها تهاجم روسيا ورؤيتها للتاريخ، فهي تدعي حقها في بعض الأراضي الروسية وتشوه التاريخ خاصة عملية (تحرير) لاتفيا بضمها إلى روسيا وتخليصها من النازيين في الحرب العالمية الثانية، بينما يتم تصوير استقلال لاتفيا على أنه خطأ تاريخي، ويدعّون على اللاتفيين أن دوافعهم للأسف انتقامية من الروس الذين حرروهم.

ويتم تصوير قرار انضمام لاتفيا للناتو على أنه قرار لا تستطيع لاتفيا أن تقابل تبعاته الاقتصادية فضلا عن تصويرها كجبهة متقدمة للولايات المتحدة تهدد روسيا، واللاتفيين على استعداد دائم للتعاون مع الغربيين ضد روسيا ومصالحها.

فيما كانت القضايا الثقافية والاقتصادية تقدم في قالب أكثر موضوعية وحيادية وأحياناً إيجابية بتذكر الأسماء اللاتفية التي لمعت في الحقبة السوفيتية كالمغنيين وعازفي البيانو والممثلين، وفيما تشير الصحافة الروسية للأسماء اللامعة الحالية في المسرح والغناء اللاتفي التي يحبها الروس،

ينعون على اللاتفيين عدم اهتمامهم بالثقافة الروسية الثرية، وكذلك يتم تصوير النظام البنكي اللاتفي وشركات الغاز الطبيعي بشكل إيجابي إذا حققت المصالح الروسية.

وفي السنوات الأخيرة خفت نغمة العداء للاتفيا، بينما تصاعدت أكثر ضد جورجيا وأوكرانيا عندما سخنت الأحداث هناك.

خامسا: لا للاتجاهات الجنسية الشاذة في روسيا

تناقش دراسة حديثة مهمة تغطية وسائل الإعلام الروسية التي تمثل التيار السائد للتشريع الذي صدر عام ٢٠١٣ بمنع الدعاية للاتجاهات الجنسية غير التقليدية، يطبق المقال نظريات الانتماء والهوية ومدى ظهور القضايا في وسائل الإعلام حتى يبين أن وسائل الإعلام تبنت خطاباً سائداً يمثل/ يصور الاتجاهات الجنسية الشاذة على أنها تهديد لبقاء الأمة الروسية إذ تمثل فرض للقيم الجنسية الراديكالية للأقلية على الأغلبية، فضلاً عن ارتباطها بخطاب الغرب الاستعماري الذي يبغي تدمير روسيا.

يرى إميل بيرسون باحث العلوم السياسية بجامعة لوند بالسويد أن صراعات الهوية الجنسية في روسيا تبني بشكل متزايد تبعاً لمنطق «إلى أي مدى هي مرئية وظاهرة في وسائل الإعلام؟»، فالموضوع الذي يناقش يمثل تهديداً والذي لا يظهر لا يمثل تهديداً بنفس القدر، وهو الأمر الذي يعد جزءاً لا يتجزأ من الثقافة السائدة في روسيا المتعمدة على الخفاء وازدواجية الخطاب بين المجالين العام والخاص، والتشريع الصادر بحق الشواذ هو جزء من الهوية الظاهرة التي يجري التأكيد عليها وهي جزء من شخصية الزعيم بوتين الذكورية الكارزمية.

وقد بدأ الاهتمام يتزايد بالاتجاهات الجنسية الشاذة في روسيا مع المسيرات السنوية في موسكو منذ ٢٠٠٦، والتي حظيت تغطيتها من قبل وسائل الإعلام بعاصفة من ردود الأفعال خاصة المعارضة والتي تمثل تحالفاً ما بين القوميين والشيوعيين وحزب بوتين الحاكم (روسيا الموحدة)، ومنظمات الآباء والكنيسة الأرثوذكسية والتي جعلت من الخطاب المناهض للشواذ هو المعيار السائد في الفضاء الروسي العام.

واعتمدت الدراسة على التحليل الكيفي لخطاب الصحف وقنوات التليفزيون الإخباري حيال (قانون منع الدعاية للشواذ) في الفترة من يناير- يونيو ٢٠١٣ وشملت صحف (روسيسكايا جازيتا)، (كومسومولسكايا برافدا)، وقنوات Channel 1 وخاصة برنامجها الإخباري اليومي Vermaya وهي الصحف وقناة التليفزيون المعروفة بتوجهها المناصر للرئيس بوتين وللكرملين.

ويكشف التحليل التاريخي كيف لعب التحكم في النواحي الجنسية في روسيا دوراً رمزياً في تكون الثقافة ومن ثم الهوية.

كان أول منع للممارسات الشاذة على يد القيصر بطرس الأكبر للتحكم في القوات المسلحة وقد تم إلغاؤه على يد البلاشفة في ١٩١٧ كجزء من جهودهم للتخلص من الأخلاقيات البورجوازية القديمة ثم أعيد منع هذه الاتجاهات أيام ستالين عام ١٩٣٤ خوفا من أن تحوي الشبكات الخفية للشواذ خلايا غربية للتجسس والتخريب، ثم ألغيت مرة أخرى عام ١٩٩٣ لمساعدة روسيا على التقرب من الاتحاد الأوروبي.

وكما تقدم، كانت هناك علاقة بين التحكم في الانحراف الجنسي وبين التحديث والتغريب، وكلا من القوانين المشجعة والمانعة تم تقديمها في سياق علاقة روسيا بالتحديث الغربي، ولعل من النقاط الهامة هو أن زيادة الحضور العام للاتجاهات الشاذة في أواسط العقد الأول من القرن الحادي والعشرين قد صاحبه خطاب قوي ضد الغرب والذي لعب دوراً في منعها الأخير.

وكان منع الدعاية للاتجاهات الجنسية غير السوية في عام ٢٠١٣ حدثاً إعلامياً بارزاً أو «فرجة» بتعبير الدراسات الثقافية، ولا يمكن فهمه دون الحضور السابق لهذه الاتجاهات في وسائل الإعلام.

وبهذا المعنى، يعد القانون منعاً للمضامين الإعلامية المحبذة للاتجاهات الشاذة ورد فعل على هذا الحضور الإعلامي للشواذ في الميديا الروسية.

وكان رد الفعل الذي جعل هؤلاء (كبش فداء) ووصمهم بالعار محركاً للحملة الإعلامية ضدهم وأكثر تأثيراً من أي غرامات مالية تم فرضها عليهم

في القانون، وهذه الصراعات الخطابية هي مادة شديدة الأهمية في رصد بيئة الإعلام الروسي وسياسات الهوية.

وأكدت الدراسة أن تحليل الخطاب الإعلامي لهذه القضية انقسم لثلاثة أقسام تبعاً للحبكة القصصية والدرامية التي تم استخدامها: ١ـ الشواذ يمثلون تهديدا لمستقبل الأمة الروسية، ٢ـ يفرضون معاييرهم المتطرفة على الأغلبية وهم أقلية، ٣ـ هم عرض على الفشل الذي اعترى التحديث الغربي، وروسيا يمكن أن تقدم بديلاً عنه.

كانت الآليات التي جعلت خطاب الشواذ "حاضراً" في وسائل الإعلام متفاعلة بين الإعلام البديل على الإنترنت وفعاليات الشارع الروسي والميديا التي تمثل التيار السائد.

وتمخض عن ذلك أن المواطن الروسي العادي أصبح متعرضاً لنوع من نمط الحياة لم يره قبل ذلك، وبسبب أن الشواذ الروس لا يعترفون بهويتهم حتى للأسرة والزملاء والأصدقاء كان ظهور هؤلاء بفعل انتشار وسائل الإعلام وتدخلها في الشأن الخاص صدمة للمواطن الروسي العادي.

ولم تعط وسائل الإعلام الروسية الفرصة لهذا المواطن الروسي ليستوعب ما يراه، بل سريعاً «وضعت إطارا» لهؤلاء الشواذ في صورة: الخطر على الأمة، التعدي على حريات الأغلبية، وحصان طروادة الذي جاء من الغرب حاملاً التدمير لروسيا، ولم ينظر أبداً للأمر على أنه اعتداء على حقوق الإنسان بل حماية للوطن من الاعتداء.

وتم تقديم الأمر في سياق روسيا التي تقف ضد ثقافة الغرب والولايات المتحدة المتحللة مقدمة بديلاً للمشروع الحداثي الغربي، وقيادة أخلاقية لهؤلاء المتعضين من الغرب لأسباب شتى في الوقت الذي لم تسترع الاهتمام الجرائم المرتكبة بحق الشواذ مثل حادثة مقتل مراهق تحت زعم شذوذه الجنسي.

وكأي شيء في روسيا إذا بقى سراً فإنه لا يثير المخاوف، أما أن يأخذ مكاناً في وسائل الإعلام لشرعنته، فهذا ما لا يمكن السكوت عليه، بل ـ وهذا هو الأهم ـ يتم استغلاله للدعاية ضد الغرب ولترويج صورة عن الرئيس بوتين القائد الكاريزمي الذي لا يرضى عن هذه الممارسات.

***

مراجع الفصل

١ـ عبد الوهاب المسيري: اليد الخفية: دراسات في الحركات اليهودية الهدامة والسرية (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨).

1- Anna Dekalchuk and Thomas Schneider, The Image of the European Union in Russian Media, Konrad Adenauer Stiftung Center, May 2012. pp. 1-15.

2- Emil Persson, Banning "Homosexual Propaganda": Belonging and Visibility in Contemporary Russian Media, Sexuality & Culture, 14 (1), 2014, pp. 245- 295.

3- Gregory Simons, Russian Crisis Management: Communications and Media Management under Putin, Arbetsrapporter Working Papers, No. 85, Department of East European Studies, Uppsala University, Sweden, January 2005. Pp. 1-28.

4- Jill Dougherty, Everyone Lies: The Ukraine Conflict and Russia's Media Transformation, Discussion Paper Series, No. 88, Shorenstein Center on Media, Politics, and Public Policy, Harvard Kennedy School, CA, USA, July 2014. pp.1-30.

5- Laura Belin, Russian Media Policy in the First and Second Chechen Campaign, A paper given at the 52nd Conference of the Political Studies Association, Aberdeen, Scotland, 5-8 April 2002. pp 1- 35.

6- Markku Lonkila, Russian Protest on–and offline: The Role of Social Media in the Moscow Opposition Demonstrations in December 2011, The Finnish Institute of International Affairs, February 2011. pp. 1-9.

obeikan.com

7- Natalia Mirimanova & Toby Mendel, Covering Conflict: Reporting on Conflicts in the North Caucuses in the Russian Media, Article 19, Global Campaign for Free Expression, London, UK, May 2008. Pp. 70-72.

8- Nils Muiznieks, Manufacturing Enemy Images? Russian Media Portrayals of Latvia, UDK, Academic press of the University of Latvia, 2008, pp. 161-163.

9- SREO, Russian News Media Coverage of the Syrian Conflict: A Content Analysis Report, Syria Research and Evaluation Organization, September 2014. pp. 1-30.

***

obeikan.com